قصّة
مطوّق بالأغلال
نور هشام عليان

مطوّق بالأغلال

قصة قصيرة

نور هشام عليان

2024

ولّى زمن الحكايا ذات الشمس الساطعة

هذه المرة

في هذه الظروف

الجو غائم جدا . . .

في عتمةِ الليل التي تبتلع كل شيء، أتقوقع أعلى سريري محتضنا نفسي المرتجفة ،أسمع خوار معدتي التي بلغ منها الجوع مبلغه ، أحاول أن أكبح ألآمًا جاثمة على صدري، أن أضعها جانبا ولو قليلا ليتسنى لي النوم المرتحل...

أسمعه جيدًا ...صوت المطر، إنها تهطل بغزارة، وكأنّ الغيوم تذرِف ما لامسها من شَجن عجزت عن البوح به، أو لربما قد رأت حالي فرأفت بحالي بأمر ربها فتراها شهقت سنًا وزفرت رعدا ، فرأتني جيدا ...

بلا مأوى، بلا ديار، بلا عائلة...وحيدٌ ويتيمٌ ومشرّد، داخل حجرة متعفّنة محترقة في منزلٍ مُهدّم، واجهة غرفتي جدارٌ مثقوب يطلُّ على الدمار والحجارة، وللمصداقية يا لها من إطلالة!

نهضت بعد ما مرّ عليّ الوقت ثقيلا، وأخذني التفكير في اللاشيء فغرقت فيه طويلا ،أجوب الحيّ بما تبقى منه أترك للسحاب حرية العبور من فوقي ليبلّلني، فتمرُّ القطرات بي لتمسح شيئًا مكتظًا داخلي، الرماد يبتلع كل الأماكن، يحتلّ كل ما فيها كعدوٍ ماكر ، وكأنني في دوامة لا متناهية من الفوضى...

أتساءل: هل كان وطني هكذا من قبل؟

فأردّ على نفسي ساخرا: يبدوا أن كابوسي هذا أشدّ من أن أصدقه!

هدأت أصوات العويل لقلة السكان، الجثث تتعفن في أحضان الطرق، البيوت مدافن وكذاك المستشفيات، كل البقاع في بلدي باتت خربة وأنا أصبحت كومًا من فتات على قيد الحياة...

شعرت بأن هناك من يتبعني، وسرعان ما التفت لرؤية المتلصص إلا أنه لم يكن هناك ما هو ظاهر أمام ناظري، أخذت أستمر في التقدم وبطبيعة الفطرة الإنسانية زدت من سرعة خطواتي، أقول لنفسي مشجعا: اهدأ... ما بك؟ لا شيء يطاردك ولأثبت لك ذلك التفت الآن وأنظر، أبطل شكك باليقين...

التفت وتوقفت هذه المرة بدى لي خيال ما، لكن العتمة أحلك من أن تسمح لي معرفة ماهيته، كان يقف بثبات ويبدوا بأنه يتأملني، لا أعلم كم لبثت وأنا أرمقه بنظرات متفحصة، كنت أحاول تحديد كينونته، بدى لي لوهلة أنه إنسان. لكن لماذا يتبعني؟

لم استطع إكمال الأفكار لأنه انطلق نحوي كالعاديات ضبحا، ليتجمد الدّم في عروقي خوفا، استدرت وأخذت أهرب منه، من ذاك المجهول الذي يتقدم نحوي، وفي الحقيقة أتساءل لماذا نخاف مما نجهله؟ نخاف دون أن نحاول معرفة ما هية ذاك المصدر الذي يؤجج نار الخوف في صدورنا ...؟

ولم استطع أن أفكر، شعرت بأني طرحت السؤال في عقلي فسقط منه وأنا أجري، وأخذت أمضي حتى زلت قدمي وهويت ...

بعد تحليقٍ دام عدة ثوان مرت كدهر كامل في مجهول أخر أشبه بأن يكون أسطوانة تقود لعمق الأرض، استمرت الجاذبية بجريي نحوها، تدفعني بكلّ ما لديها، أتظنني سأستسلم لأني لا أمتلك ما أبذله؟

ظلت كذلك حتى ثقلت أجفاني وفقدت وعيي، لا أعلم كم غبت عن الوعي، لكنني بدأت استيقظ الان، أتململ محاولا النهوض لكن جسدي مخدّر، المكان من حولي أزرق وكأنني في كهف جليدية قابع في إحدى القطبين، هناك ثقل ما استشعره على ظهري، التفت بتعب فلم أستطع رؤية شيء، تحسسته بيدي فشعرت بأن هناك غرابة ما وكأنها ...كأنها أجنحة.

تأملت المكان حولي فعثرت على ساعة متوقفة تُصلب على جدار مقابل لي عقاربها لا حياة فيها وكأنها تؤكد أنني بين ثنايا الزمان عالق وأن الوقت الذي لا يتوقف لأي سبب كان قد قرر أن يحتجزني هنا...سعيت جاهدًا لأنهض، استندت على أطرافي الأربع، ورفعت جسدي المثقل فوجدت ذراعي مكبّلة، وكذاك أقدامي لكن مجال القيد ممتد يبدوا أني أستطيع التحرك ضمن بقعة معينة بأغلالي.

أخذت أجوب المكان متفحصا، حتى بدى لي في الزجاج انعكاسي، كنت كمن اسودَّ وجهه وتحجّر دمه وشخصت عيناه، كنت غريبا عني، فلم أعرفني، لي جناحان عظيمان

متصلان في ظهري، شعري طويل منسدل على أكتافي، ولا تخلوا بقعة من جسمي من القيود والحبال والسلاسل المربوطة، استمريت في التقدّم وفكرة أن بعض السقوط قد يجعل المرء غريبًا حتى عن نفسه!

وما أقسى أن يهجرك الشعور فتصبح جليدًا صلبًا، وكأنك حجر ولست ببشر!

تداعت امامي حركة ما من إحدى الأطراف الجليدية فانطلقت نحوها لأتفحصها كانت و كأنها كرة زجاجية تجلس متربعة على عِماد مزركش، بدأت الصور تتجسّد أمامي مقاطع حية، رأيت والدتي يُبْقر بطنها وتموت أمامي صارخة إثر ما

مرّت به، رأيت عيني والدي شاخصتان بعدما جن جنونه على ما فعلوه بزوجته وحبيبته فأصابته جلطة على ما يبدوا...وكنت أنا شاهدا على موته، رأيتهم يمسكون أخي حبيبي صغيرنا المدلل، يركلونه وكأنه كرة قدم، وهو يعول ويبكي وقد شجّ رأسه، رأيتهم يفقأون عينه ويغرسون السكين في فؤاده، رأيت أصدقائي جثامين في الأزقة وعلى قارعة الطرق ، رأيت الدم في وطني أنهار سابحة، رأيتني أقف أمام منزلي المهدّم وأنا الناجي الوحيد ...جزعت!

تراجعت بخطوات مرتجفّة للوراء، أوصالي ترتجّ في صخب، أنا خائف ووحيد ومتعب، أنا غاضب والدم داخلي يهدّر على ما هُدر.

صرخت وضربت الجدار بيدي، ثمّ ألمني سماع دوي الحرب في رأسي فأخذت أكرر ضربه في الجدار لعله يهدأ... فسالت حمرته ولم يهدأ.

حاولت الطيران بما أمتلكه من أجنحة، بذلت جهدا كبيرا وبتكرار المحاولات نجحت أخيرا، وما إن ارتفعت حتى ارتطمت بالسقف وسقطت، فجاءني صوت ضحكات بلا صاحب، بدا لي ساخرا يقول: ستظل هنا للأبد، ستسلب كل ما تملك، ستموت هنا وستتعفن.. فضحكت بكل جبروت وكأنني أعرف صاحبه و صرخت فيه: تكون مغفلا لو كنت تظنّ حقا أنني سأستسلم وأنهزم ! سأظل أحاول وكلي أمل بأن تكلّل محاولاتي بالخروج من هذا المأزق ،وأنا أثق بأنه ومهما كبلت أطرافي بقيود فحريتي أثمن من أن تسلب...ولن يتمكن من فعل ذلك أحد، ولو وضعت في تجويف أدهم فالقلب منيرٌ وعيون ذوي البصيرة لا تحتاج لشعاع لترى ما حولها ، حتى ولو طوّقها الردم .

تمّت